- 5 -

من أولئك الناس؟

قبل الحرب لم تكن المحال تغلق في بغداد حتى العاشرة مساء، بينما فتحت أفخر مطاعم المدينة أبوابها إلى ما بعد منتصف الليل، ناهيك عن حفلات العشاء التي كانت تستمر مدداً أطول. لم يعترِ القلق أحداً بما يتعلق بالعودة إلى البيت في الساعات الأولى من الفجر. مثلت عاصمة العراق، لغير المعارضين، واحدة من أكثر مدن العالم أمناً.

ما انفك رجال الشرطة يجوبون الشوارع. لم يخفَ على أحد أن أبسط المخالفات يمكن أن تزج بصاحبها في (أبو غريب)، إن تبسم له الحظ، ما لم يكن من أقرباء صدام أو حاشيته، بينما يمكن أن تقطع أيدي الآخرين، أو تعلق مشانقهم.

أمضى معظم ضباط الشرطة العراقيين، في كثير من الأوقات، كما علمت لاحقاً، طيلة أيامهم فيما يتبعون له من مراكز. ما كانوا يغادرونها، إلا فيما ندر، عندما يتبلغون وقوع جريمة ما. كانت أجهزة صدام الاستخبارية تتولى الموقف، حين يستلزم عملاً تحقيقياً، أو المضي في الاستجوابات.

سأل مجلس الأمن القومي وزارة العدل، مع اقتراب الحرب، وضع خطة متعلقة بالشرطة العراقية. أوكلت المهمة لريتشارد ماير، الذي كان يشغل في حينه منصب المدير المساعد لبرنامج التدريب الدولي في الوزارة، وأسهم في إعادة بناء قوات الشرطة عقب النزاعات في البلقان وهاييتي. بدأ الرجل عمله مستنداً إلى الطرح الرئيس الآتي: لن يكون بمقدورك التأكد مما إذا كانت قوات الشرطة ستبقى في مواقعها، أو تمتلك أياً من الفاعلية. تقدم ماير، بالتعاون مع خبراء دوليين في العمل الشرطي في وزارة الخارجية، باقتراح لدعوة خمسة آلاف من المستشارين الدوليين في فرض القانون، بغية الإسهام في تدريب قوات الشرطة العراقية، مع إمكانية

توليهـم مهام تلك القوات، إن اقتضت الضرورة، كمـا فعل ضباط الشرطة الدوليون في كوسوفو.

عرضـت خطة ماير على لجنـة النواب، مجموعة صنع القـرار التابعة إلى وكالات مختلفـة، برئاسة ستيف هادلـي. أفشل النواب الخطة، استناداً إلـى تقرير للسي آي أيـه يزعـم أن الشرطة العراقية تتمتـع بالفعل بتدريب حرفي عـالٍ، وتوقع البنتاغون مواصلة قوات الشرطة عملها ما بعد الحرب. أدى القلق بشأن نظرة العراقيين، علاوة علـى ذلك، دوراً كبيـراً في إفشال الخطـة. تحدث أحد المشاركيـن، بذلك الصدد، قائـلاً: «تمثلـت وجهة النظر السائدة فـي الآتي: لا يمكننا إرسـال كل ذلك العدد من ضبـاط الشرطة. سيبدو الأمـر وكأننا نستولي على البلد». خرج مجلس الأمن القومي بخطة جديدة: إرسال وزارة العدل فريقاً صغيراً من خبراء فرض القانون إلى العراق بصورة مباشرة، في أعقاب الحرب، لتقويم الوضع.

انطـوى التجول بعد مغيب الشمس، بحلول وصول الخبراء في منتصف أيار/ مايو، على قدر كبير من المخاطرة. اعتادوا التنقل، أثناء النهار، في مواكب مؤلفة من عربتين، وقـد حمل جميعهم السلاح. تعين على الأمريكيين توخي الحذر، في تلك المرحلة التي سبقـت التمـرد، بما يقل عن العراقيين بكل الأحوال. ما عرفت من العراقيين من سلم من جرائم العنف، أو جهل من تعرض لها. اعتاد قطاع الطرق، المسلحون ببنادق «إي كـي 47» الآليـة، السطو على العربات فـي التقاطعات المزدحمـة. كان رجال الأعمال يختطفون في الشوارع، ويؤخذون رهائن، حتى دفع عائلاتهم فديات باهظة.

غـاب رجال الشرطة العراقيـون عن المشهد تقريباً، بعـد أن تركوا مواقعهم عند دخـول القوات الأمريكية بغـداد. التزم معظمهم بيوتهم، بينما بلغ الأمر ببعضهم حد المشاركة في أعمال النهب. تخوف القلة، من العائدين إلى العمل، من محاولة فرض القانون. ما كانوا يحملون سوى المسدسات في مواجهة بنادق المجرمين الآلية.

لم يستلزم الخبراء كثيراً من الوقت لإدراك الحاجة إلى إرسال ما يزيد عن 6600 مستشار شرطي أجنبي إلى العراق بصورة مباشرة.

لم يرسل البيت الأبيض سوى شخص واحد: بيرني كيريك.

امتلك برنارد كيريك من النجومية ما يفوق بريمر، وغيره من العاملين في سلطة الائتلاف المؤقتة. كان الجنود يستوقفونه في أروقة القصر الجمهوري للحصول على توقيعه، أو أخذ الصور برفقته. اهتم المراسلون الصحفيون بمقابلته بما يفوق الحاكم نفسه.

شغل كيريك منصب مفوض شرطة نيويورك حين هاجم الإرهابيون مركز التجارة العالمي. تحول الرجل إلى بطل قومي بفعل شجاعته (أصدر أوامر الإخلاء، صارخاً، على بعد كتلة سكنية واحدة من البرج الجنوبي أثناء انهياره)، وصلابته (عمل على مدار الساعة، غافياً في مكتبه، طيلة أسابيع)، وشخصيته الكاريزماتية (مثل خير من يجري اللقاءات التلفزيونية). برز اسم كيريك بينما انشغل مسؤولو البيت الأبيض في اختيار شخصية بارزة لتولي مسؤولية وزارة الداخلية العراقية، ومغالبة التحدي المتمثل في إعادة بناء قوات الشرطة العراقية. رأى الرئيس بوش في الرجل خياراً ممتازاً.

لم ينتمِ كيريك إلى المختالين من منظري الجريمة والعدالة. توفيت والدته، بائعة الهوى، حين كان في الرابعة من العمر. ترك الرجل الدراسة في المرحلة الثانوية. التحق بشرطة نيويورك، بعد أن عمل آمراً في أحد سجون نيوجيرسي، ليعمل شرطياً في الشارع، فمتحرياً متخفياً عن المخدرات، فرئيساً لإصلاحيات المدينة في نهاية المطاف. عمل كيريك، للمرة الأولى، حارساً شخصياً لرودي جولياني. اعتاد التحدث بلغة فجة، وكان يحلق الشعر على جانبي ومؤخر رأسه الأقرع، محافظاً على ما يسم مظهره من بأس وصرامة، وكأنه يحذر الآخرين من العبث معه. خاطب أحد المسؤولين مفوض دائرة إصلاحيات المدينة، قبل سنوات، حين عُين كيريك في منصب بارز في الدائرة، قائلاً: «هنيئاً لك. قد وظفتَ رامبو لتوّه».

سبق لكيريك العمل في الشرق الأوسط، مديراً أمنياً لمستشفى حكومي في السعودية، ليطرد من البلاد في خضم تحقيق حكومي عن مراقبته الطاقم الطبي.

افتقـر الرجـل إلى الخبـرة الشرطية فـي مراحل ما بعـد النزاع، ليميـزه ذلك، بكل الأحـوال، في نظر البيت الأبيض. أعوِزَ المخضرمون، ممن عملوا في الشرق الأوسط طويـلاً، إلى الالتزام الكافي بجعـل المنطقة ديمقراطية، كما كان ينظر إليهم. اعتبِرَ خبـراء ما بعد الحـرب ليبراليين للغاية، بمـا يشمل العديد مـن العاملين لدى وزارة الخارجيـة، والأمم المتحدة، والمنظمات غير الحكومية. نظر العديد إلى من يماثلون كيريـك –مـن جمهوريين ملتزمين، ذوي سجلات حافلة فـي العمل والإدارة– كرجال أمثـل لتولي المهمـة. اتسم أولئك بالـولاء، وقد شاركـوا إدارة الرئيـس بوش هدفها المتمثـل في إعـادة بناء العراق وفـق الرؤية الأمريكية. لم يكن ذلـك فحسب ما ميز كيريك، بالنظر إلى محبة الإعلام، وثقة الشعب الأمريكي.

كان روبـرت غيفـورد، خبيـر وزارة الخارجية الدولي في فرضـ القانون، من بين أوائـل موظفي سلطة الائتـلاف المؤقتة الذين التقوا كيريك عنـد وصوله إلى بغداد. شغـل غيفورد منصب كبير مستشاري وزارة الداخليـة العراقية، التي تولت الإشراف على قوات الشرطة، وقد كان يفترض بكيريك تولي منصبه.

تحـدث غيفورد إلى كيريك قائلاً: «أفهم أنـك ستتولى المسؤولية، وأننا موجودون هنا لدعمك».

عقب كيريك قائلاً: «أتيت هنا لتسليط المزيد من الأضواء على ما يبذل من جهود حثيثـة لبناء قوات الشرطة، بالنظر إلى أن الموقـف لا يتسم، على الأرجح، بما يظنه الناس من سوء».

فكر غيفورد، قائلاً لنفسه: «لم يأتِ الرجل إلا لتوّه».

أخبـر كيريك غيفورد أنه لم يكن ينـوي التدخل في عمله، وأنه لم يخطط للبقاء بمـا يتجاوز ستة الأشهـر. كان كيريك شريكاً في شركة جوليانـي الاستشارية، وقد أخبر غيفورد أنه مرتبط بعدد من الأمور، قائلاً: «لا يمكنني تحمل كلفة البقاء هنا». أردف الرجل، بكل الأحوال، قائلاً: إن جولياني وزوجه أكدا على عدم إمكانية رفض مطلب الرئيس.

أبـدى غيفورد استعـداده لإطلاع كيريك على حقيقة الأوضـاع، بينما دخلا مكتب وزارة الداخليـة فـي القصـر، قائلاً: «سأجلـس برفقتك، وأعلمـك بحقيقة الموقف، وهويـة اللاعبين، وتفاصيـل العملية»، ليستذكر قائلاً: إنـه أدرك في حينه أن كيريك لم يكن يعيره الانتباه: «لم يصغِ لشيء مما قلته، ولم يقرأ سوى رسائله الإلكترونية. لا أظن أنه اطلع على أي مما عرضناه».

لم يكن كيريك يهتم بالتفاصيل، مخولاً غيفورد انتقاء الطريقة المناسبة لتدريب قوات الشرطـة العراقية، بغيـة العمل في مجتمع ديموقراطي. عمد كيريـك إلى إطلاع الحاكم ووسائل الإعلام على حقيقة الأوضاع، بينما تولى عدداً من المهام بصورة شخصية.

عمل كيريك في بداية المطاف، بعد أيام من وصوله إلى بغداد، على إجراء العديد مـن المقابلات، مؤكداً على تحسـن الأوضاع. تحدث الرجل إلـى الأسوشيتيد برس، قائـلاً: «لا يتسـم الأمن في بغداد بما كنت أظنه من سوء. هـل تقع أمور سيئة؟، نعم، ولكـن الوضـع لا يخرج عن نطـاق السيطرة، وهو آخذ في التحسـن». ظهر الرجل في برنامـج «تـوداي شو»، على محطـة الإن بي سي، عـلاوة على ذلك، ليعلـن أن الوضع «أفضـل مما كان يتوقع»، ناهيـك عن مجلة التايم، التي خاطبهـا، قائلاً: «بدأ الناس يشعرون بثقة أكبـر، وهم يخرجون إلى الشارع. فتحت المتاجر والمحال أبوابها، بعد أن رأيتها مغلقة منذ أسبوع مضى».

لـم يجازف كيريـك فيما يتعلق بسلامتـه الشخصية. تعاقد الرجـل مع فريق من الحرس المنتمين إلى جنـوب إفريقية، ممن سبق لهم العمل مـع غارنر، ناهيك عن حمل مسدس يدوي، من عيار 9 ملم، داخل سترة السفاري التي يرتديها.

مثلـت الأشهـر الأولى بعـد التحرير مرحلة حرجـة للشرطة العراقيـة. تعين على الضبـاط العودة إلـى مواقعهم، وقد خضعـوا للتدقيق في انتماءاتهـم لحزب البعث. كانـوا بحاجة لاكتساب مهارات جديدة، واستجـواب المعتقلين دون تعذيبهم، ناهيك عمـا استلزموه مـن عتاد حديث. خضع القـادة الجدد لكثير مـن التمحيص، وتطلب الأمر استخدام عشرات الألوف من الضباط لإنهاء الفوضى.

لم يعقد كيريك سوى اجتماعين إبان وجوده في العراق: عند وصوله، وحين تعرض للتمحيص من قبل مراسل النيويورك تايمز، بحسب جيرالد بيرك، قائد الشرطة السابق في ماساشوسيتس، الذي شارك في مهمة التقويم الأولي في وزارة العدل. لم يؤمن كيريك، بالرغم من صِلاته بالبيت الأبيض، التمويل الكافي للمستشارين الشرطيين. أوكلت مهمة تدريب وتنظيم الضباط العراقيين، مع غياب الدعم اللازم، إلى عناصر الشرطة العسكرية الأمريكية، المفتقرين في غالبيتهم إلى الخبرة فيما يتعلق بفرض القانون المدني.

خاطبني بيرك، في وقت لاحق، قائلاً: «لم يمثل بيرني الشخص المناسب، وقد جاء في التوقيت الخاطئ. لم يمتلك المهارات اللازمة. تجسد ما كنا بحاجة إليه في شخصية قيادية على الصعيد التنفيذي... لم يأتِ بيرني سوى بعقلية الشرطي في الشارع».

تمحور اهتمام كيريك، عوضاً عن التركيز على مجمل الوضع، حول شخصية عراقية واحدة، أحمد إبراهيم كاظم. مثّل الأخير نسخة عراقية عن كيريك: رجل يهوى التربيت على ظهور الناس، وشرطي يتبع راعياً قوياً (يجسده كيريك، في تلك الحالة، بما يماثل رعاية جولياني للأخير). شغل إبراهيم منصب ضابط متوسط الرتبة في بغداد، لا أكثر، قبل وقوع الحرب (سجن الرجل في أواخر السبعينيات لانتقاده صدام، ناهيك عن حرمانه من الترقيات لرفضه الانتساب إلى حزب البعث). أثار إبراهيم اهتمام كيريك لمعرفته بالإنجليزية، على النقيض من كثير من ضباط الشرطة، وإن تحدثها بلغة ركيكة. توطدت العلاقة بين الرجلين، بكل الأحوال، في ختام مؤتمر صحفي مشترك بين بريمر وعدد من ضباط الشرطة العراقيين. أثار إبراهيم الانتباه، في حينه، شاكراً الحاكم أمام أعين العدسات. عيَّن كيريك الرجل، الذي أعلن نفسه جنرالاً، في غضون أسابيع، رئيساً للتحقيقات، ومعاوناً لوزير الداخلية.

شغل إبراهيم مكتباً فسيحاً في أكاديمية شرطة بغداد، التي استخدمت مقراً للشرطة بعد إحراق مبنى وزارة الداخلية. زينت جدران المكتب بصور لإبراهيم مع كيريك، وبريمر، ورمسفيلد. اتسم الرجل، كما كيريك، بالبراعة في إطلاق الشعارات

الرنانـة. خاطبني، في إحدى المـرات، قائلاً: «نعمل على تحويل رجـال الشرطة إلى أشخاص جدد. يتعين عليهم نسيان الطريقة التي تصرفوا بها في السابق».

عمـل إبراهيم، بموافقة كيريـك، على تشكيل وحدة شبـه عسكرية، من مئة رجل، لملاحقـة العصابات الإجرامية التـي تشكلت منذ بدء الحرب. لم يملك العاملون لدى كيريك أي فكرة عن هوية الرجال الذين انتقاهم إبراهيم. اشتبه بيرك –الذي بقي في العـراق للإسهام في تدريب قوات الشرطة بعد إنهـاء وزارة العدل مهمتها التقويمية– في أنهم يتبعون إحدى الوحـدات العسكرية أو المنظمات الأمنية التي حظرها بريمر. لـم يتحرَّ أحد عن الأمر بكل الأحوال. زودت الوحـدة ببنادق «الإم 16» الآلية، وأجهزة الاتصال الأمريكية. مثلت وحدة كيريك شبه العسكرية، في نظر بيرك وغيره من أعضاء فريـق وزارة الداخلية التابع لسلطة الائتلاف المؤقتة، خروجاً عن المهمة المتمثلة في إعـادة بناء القوات بصورة شاملة، بينما شجع بريمر وأحد معاونيه الرئيسين، العقيد السابق المغمور جايمس ستيل، كيريك على المضي قدماً في مقاربته.

اختلـف ستيـل، مستشـار بريمر في قـوات الأمـن العراقية، عن كيريـك إلى حد بعيـد. اتسم الرجـل بطول القامة، متجنبـاً البقاء في الأضواء. لـم يكن يتحدث إلى الصحافيين إلا فيما ندر، وقد كان يتحفظ للغاية حين يفعل. امتلك ستيل، بكل الأحوال، حس المغامـرة في المناطق المعادية. ترأس، فـي الثمانينيات من القرن المنصرم، فريقاً من المستشارين العسكريين الأمريكيين لمساندة حكومة السلفادور في حملتها ضد المقاتلين الماركسيين. استدعي الرجل، بعد بضع سنوات، للشهادة أمام مجلس الشيـوخ في مشاركته فـي برنامج أوليفر نـورث لتزويد ثوار الكونتـرا النيكاراغويين بالسلاح من قاعدة جوية سلفادورية. ترك ستيل الجيش، في التسعينيات، للعمل لدى إنـرون وغيرها من الشركات الخاصة. اتصل به صديقه القديم وولفويتز، قبل نشوب الحرب، عارضـاً عليه العمل كبيراً لمستشـاري وزارة الكهرباء العراقية. كلف غارنر الرجل، عند وصوله بغداد، بالعمل على تدريب ضباط الشرطة العراقيين.

لـم تتضـح مهمـة ستيل، على وجـه العمـوم، لأعضـاء فريـق وزارة الداخلية. ما انفـك الرجل يغادر المنطقة الخضراء، بمـا لا يخلو من المجازفة، بغية زيارة مراكز

الشرطـة، دون التنسيق مع بقية الموظفين في كثيـر من الأحيان. بدا ستيل في بعض الأوقات، كشريف يعمل على تأمين بغداد بمفرده. يستذكر أحد أعضاء فريق التقويم التابع لوزارة العدل، حين توجه برفقة ستيل لحضور أحد الاجتماعات، محاولة الأخير إيقاف سائق عراقي.

سأله العراقي، في حينه، صارخاً: «من أنت؟».

نقل معاون ستيل، ضابط الشرطة الأمريكي العراقي من فيلادلفيا، سؤال العراقي إليه، ليلوح بمسدسه اليدوي، صارخاً: «أنا القانون. توقف..».

شـارك ستيل وكيريك إبراهيم، في كثير من الأحيـان، في غارات ليلية، مغادرين المنطقـة الخضراء في منتصف الليل، قبل أن يعودا إليها في الفجر، ليحضر كيريك اجتمـاع كبار موظفي بريمر، حيث يروي بعض النكات، ويصف مغامرات الليل، قارئاً آخـر ما أعده معاونوه من إحصائيات الجرائم. اعتقلت شرطة إبراهيم الجوالة، كما دعاهـا بيرك، عدداً من عصابـات الخطف وسرقة السيارات، مما ترجم إلى عناوين إخباريـة أفرحـت كيريك، ونالـت استحسان بريمـر. لم يكن كيريك، بـكل الأحوال، يشـرف على وزارة الداخليـة أثناء النهار، بالنظر إلى مهامـه الليلية، حيث كان يغط في النوم.

مـا انفكت المزاعـم تثار عن شرطة إبراهيـم الجوالة. اكتشـف الجيش احتفاظ الرجـل بالعشرات ممـا استولي عليه من قذائـف ومدافع هاون في الغـارات، ناهيك عن آلة تزوير، زعم بعضهم استمرارها في العمل. اتهمت وحدة إبراهيم، علاوة على ذلك، بتعذيب تسع من البغايا المعتقلات بالصدمات الكهربائية.

أثارت الغارات حفيظة الجيش الأمريكي، الذي لم يكن يُعلم، في كثير من الحالات، بتنقـل عشرات المسلحيـن من العراقيين، وبضعـة الأمريكيين، فـي أنحاء المدينة، عامديـن إلى تحطيم الأبواب. أطلقت وحدات الجيشـ النار، في بعض الأحيان، على رجـال إبراهيـم الجوالين، مشتبهة في كونهـم من المتمردين. تحـدث العقيد تيدي سبايـن، قائد إحـدى فرق الشرطة العسكريـة في بغداد، بذلك الصـدد، قائلاً: «لم

يكن هنالك من تنسيق. لم أكن واثقاً مما كانوا يحاولون إنجازه، عدا التصرف كرعاة البقر الخارجين لقضاء وقت ممتع».

رغب العديد من أعضاء فريق وزارة الداخلية في لفت الانتباه إلى سلوك كيريك، ولكنهم استنتجوا أن أياً من الشكاوى سيتم تجاهلها بذلك الصدد. تحدث أحد أعضاء فريق التقويم التابع لوزارة العدل، قائلاً: «رأى طاقم بريمر في الرجل أهمية كبيرة. لم يرد أحد مساءلة قائد الشرطة إبان الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر».

لم يرد أحد ذلك باستثناء جيم أوتويل، رجل الإطفاء المنتمي إلى بوفالو، الذي كان يحاول إعادة بناء دائرة الإطفاء العراقية. انتمى رجال الإطفاء، تحت حكم صدام، إلى قوى الشرطة الوطنية، وقد كانوا يطلبون الرشاوي ممن يلتمسون خدماتهم. تمثلت إحدى أولويات أوتويل في تحويل دائرة الإطفاء إلى كيان مستقل ضمن وزارة الداخلية. استلزم ذلك موافقة كيريك، مما دفع أوتويل إلى المطالبة بلقائه لمناقشة المسألة، والبحث في الميزانية المطلوبة لاستجلاب معدات جديدة. لم تسلم سوى محطة إطفاء واحدة من النهب في أنحاء البلاد كافة، ناهيك عن الافتقار إلى مضخات المياه، والفؤوس، والأقنعة، والسلالم.

أرسل أوتويل مذكرة إلى معاون كيريك الإداري، مطالباً بلقائه. انتظر الرجل يومين للحصول على الرد، قبل التوجه، في اليوم الثالث، إلى مكتب كيريك لمواجهة المعاون.

خاطبه أوتويل قائلاً: «حين أخبرك أنني بحاجة لرؤيته، وأطلب ذلك، فإنني أتوقع أن أوضع على جدول أعماله، وأمثل أولوية». التفت كيريك، الذي كان موجوداً في الجوار، إلى أوتويل.

خاطبه بانفعال، قبل أن يغادر، وهو يطأ الأرض بقوة، قائلاً: «أقرر من أود رؤيته، وأجعل منه أولوية، وأنا الوحيد الذي يعطي التعليمات بشأن ذلك. هل تفهم ما أقول؟، من تظن نفسك؟».

توجه أوتويل إلى بريمر، في نهاية المطاف، ليوافق على طلبه المتعلق بالتمويل.

شغل فريق وزارة الداخلية مكتباً صغيراً في القصر إلى جانب مستشارين أمريكيين يعملون لدى وزارة العدل. لطالما أحضروا قضاة عراقيين، برفقة المترجمين، لعقد الاجتماعات.

سأل كيريك غيفورد، في أحد الأيام، قائلاً: «بوب، من أولئك الناس؟ من هم؟».

أجابه غيفورد قائلاً: «آه، إنهم عراقيون».

عقب كيريك قائلاً: «ما الذي يفعلونه هنا؟».

أجابه غيفورد قائلاً: «بيرني، يمثل ذلك سبب وجودنا هنا».

حضر كيريك اجتماعاً لقادة الشرطة المحليين في مركز المؤتمرات، عقب ثلاثة أشهر من وصوله. وقف الرجل مودعاً الجميع، حين حان دوره في الكلام. لم يطلع كيريك معظم موظفيه على قراره، بالرغم من إبلاغه بريمر قبل بضعة أيام. غادر الرجل بغداد بعد بضع ساعات.

خاطبني كيريك قائلاً: «كنت في عالمي الخاص، وفعلت ما أرتئيه مناسباً».

استند قرار تعيين كبار المستشارين في سلطة الائتلاف المؤقتة إلى أعلى المستويات في البيت الأبيض والبنتاغون. انسحب الاختيار، في كثير من الأحيان، على طريقة تعيين كيريك: تزكية من قبل جمهوري مقرب لمصلحة صديق، أو زميل موثوق. وظف الآخرون من قبل الرئيس بوش شخصياً. أراد البيت الأبيض، علاوة على ذلك، استبدال فريق جديد بطاقم غارنر، الذي كان ينظر إليه بعين الارتياب، جراء قدوم أعضائه من وزارة الخارجية، وغيرها من الوكالات الفيدرالية، دون التمحيص في ولاءاتهم السياسية.

استند تعيين بقية موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة إلى اعتبارات الولاء ذاتها. مثل جايمس أوبيرن، مسؤول ارتباط البيت الأبيض في البنتاغون، «حارس البوابة» فيما يتعلق بذلك الصدد. تولى الرجل مسؤولية اعتماد الموظفين، مستعلماً عن سيرهم

الذاتيــة بواسطــة أعضاء جمهورييــن في الكونغرس، ومؤسسات أبحــاث محافظة، ونشطــاء الحزب الجمهوري. تحدث فريدريك سميث، المدير المساعد لمكتب سلطة الائتــلاف المؤقتة في واشنطن، قائلاً: «تمثل المعيار المستخــدم لإرسال الناس إلى هناك في امتلاكهم المؤهلات السياسية المناسبة».

أشار أوبيــرن مرة، بحسب سميث، إلى السيرة الذاتية لأحــد الشبان، واصفاً إياه «بالمرشــح المثالي». تمثل مؤهل الشاب الرئيس في العمل لدى الحزب الجمهوري في فلوريدة، أثناء إعادة فرز الأصوات في انتخابات الرئاسة للعام 2000.

طرح طاقم أوبيرن من الأسئلة، أثناء مقابلات التوظيف، ما يكفي لسوق أي موظّف فــي القطاع الخاص إلى المحاكمة (استثنــي البنتاغون من معظم ضوابط التوظيف، استناداً إلى تعيينه الأشخاص –بواسطة فقرة مبهمة في القانون الفيدرالي– موظفين سياسييــن مؤقتين). تحدث موظفان من سلطة الائتلاف المؤقتة قائلين: إنهما سُئِلا عمــا إذا كانا قــد أيَّدا قضية «رو ضد وايــد»، التي شرعت الإجهاض، وصوتا لجورج دبليــو بوش. كتــب أحد موظفــي السلطــة السابقين، الــذي شغل مكتبــاً بالقرب من طاقــم ارتباط البيــت الأبيض، رسالة إلكترونية إلى صديقــه، واصفاً عملية التوظيف بقــول الآتــي: «رأيت سيراً ذاتية لأفراد موهوبين للغاية، ممــن أرادوا العمل في سلطة الائتــلاف خدمــة للبلاد، ترمى فــي القمامــة، استناداً إلــى التشكيك فــي التزامهم «برؤية الرئيس للعراق» (العبارة المألوفة في أوساط سلطة الائتلاف المؤقتة). رأيت موظفين مدنيين بارزين، من وزارات الخزانة، والطاقة، والتجارة، وهم يحرمون من تولــي مناصب استشارية في بغداد، لتسلم، عوضاً عن ذلك، إلى مسهمين بارزين في اللجنة الوطنية الجمهورية».

أخبرنــي موظف آخر فــي سلطة الائتلاف أنــه فوجئ، حين توجه إلــى البنتاغون لإجراء مقابلته التوظيفية، بأحد معاوني أوبيرن يخوض في تفاصيل السياسة الداخلية لعشر دقائق، بما يشمل معارضة الإجهاض وتأييد عقوبة الإعدام. لم يوافقه الموظف فيما قال، ولكنه تظاهر بذلك؛ خشية فقدان الوظيفة.

خاطبني منذر فتفت، الأمريكي من أصل لبناني، الذي تقدم لوظيفة كبير مستشاري وزارة الشباب والرياضة، قائلاً: إنه سئل أثناء مقابلته، في مكتب ارتباط البيت الأبيض، عما إذا كان جمهورياً أو ديموقراطياً. سئل الرجل مجدداً، حين أجاب بأنه كان ديموقراطياً، عمن صوَّت له في انتخابات العام 2000 الرئاسية.

تحدث فتفت قائلاً: «تجنبت الإجابة عن السؤال».

سئل فتفت، المسلم، فيما بعد عن ديانته، ليجيب قائلاً: «أنا مسلم ولكنني متزوج من مسيحية. يذهب أولادي إلى مدارس كاثوليكية، كما فعلت في السابق».

يحمل فتفت شهادة الدكتوراه في الدراسات عن الشباب. سبق له العمل أربع سنوات مع الأمم المتحدة وزيراً للشباب والرياضة في كوسوفو. حظي الرجل، علاوة على ذلك بدعم عضو جمهوري في الكونغرس عن بنسلفانيا. حصل فتفت على الوظيفة في نهاية المطاف، بعد الخضوع إلى خمس مقابلات منفصلة في البنتاغون، بينما لم يجرِ معظم المقبولين سوى مقابلة واحدة.

تعرض الرجل مجدداً، عند وصوله بغداد، للمساءلة عن معتقده. تحدث بذلك الصدد قائلاً: «سألني أحد كبار معاوني بريمر عن ديانتي، ليفاجأ حين أجبته، قائلاً: «آه، أنت مسلم؟، ولكنك لست إرهابياً، أليس كذلك؟».

سئل فتفت من قبل أحد زملائه، من كبار المستشارين، مع اقتراب عيد الفطر، عن موعد حلوله بدقة. أجابه فتفت قائلاً بعدم وجود موعد محدد لذلك، استناداً إلى رؤية هلال شوال، ليعقب زميله قائلاً: «هذا غباء. سيحل العيد في غضون أسبوع، ولا تدري متى ستحتفل به؟». عجز فتفت عن التعقيب لهول مفاجأته.

أعلن بريمر، ما إن وصل بغداد، عن الحاجة إلى مئات الموظفين، من ذوي الخبرات الخاصة في معظمهم. أثار الرجل، ورئيس موظفيه، المسألة عبر الهاتف، والدوائر التلفزيونية المغلقة، والرسائل الموجهة إلى الوزراء والبيت الأبيض. التقى بريمر فريدريك سميث، في رحلته الأولى إلى واشنطن في أواخر تموز/ يوليو 2003، ليخبره أن أولويته الأولى تتمثل في إرسال المزيد من الموظفين. خاطب سميث دوائر

واشنطن؛ طلباً للمساعدة. عرضت بعض الوزارات، كالخزانة، إرسال موظفين على الفور، بينما رفضت أخرى التعاون، كالعدل على وجه الخصوص. تحدث الرجل، بذلك الصدد، قائلاً: «كانوا يتذرعون على الدوام بالحرب الداخلية على الإرهاب، ليقابلوا مطالبنا بالرفض حين نخبرهم أن العراق يمثل إحدى أولويات الرئيس».

أرسل بريمر أحد كبار معاونيه، روبين جيفري، في نهاية المطاف، لإدارة مكتب سلطة الائتلاف المؤقتة في واشنطن. تمثلت الأوامر الصادرة إليه في إرسال مزيد من الأشخاص إلى بغداد. قارب جيفري –المصرفي السابق في غولدمان ساكس– المسألة كرجل أعمال: تعاقد مع اثنين من الموظّفين، بحثاً عن المواهب في عالم الشركات. عمل طاقم أوبيرن على طردهما من البنتاغون، حين علم بالأمر. توسط جيفري لإبقائهما في المبنى، ولكن خسارته حرب المواقع لم تكن بخافية على أحد. أخبر الموظّفين لاحقاً أن دورهما يقتصر على تقديم العون فيما يتعلق بمقابلة المتقدمين الخاضعين لتمحيص طاقم أوبيرن في المقام الأول.

تحدث سميث، بذلك الصدد، قائلاً: «لو تمثل الأمر في انتقاء مستشارين للإدارة الأمريكية، لتفهمت تماماً ما يقتضيه من مراعاة للارتباطات السياسية. يجسد ذلك حقاً للرئيس فيما يتعلق بإدارة الحكومة في أوقات السلم داخل الولايات المتحدة، ولكننا نتعامل مع موقف متأزم في العراق، موقف استثنائي يستدعي، بحسب اعتقادي، التغاضي عما هو مألوف من التقاليد السياسية، وطرق تسيير الأمور، وتعيين الموظفين، بغية الحصول على أفضل فريق ممكن للعمل على حل المشكلة هناك».

لم يحدث ذلك مطلقاً، بكل الأحوال. أردف الرجل قائلاً: «لا أعتقد أننا أرسلنا الفريق المطلوب. لم نختر الأشخاص المناسبين لأداء المهمة، بما لا يستثني البيت الأبيض، وما دونه، من المسؤولية. كانت مهمة عسيرة للغاية، ولم نرسل الناس لأدائها إلا بناء على توجهاتهم السياسية».

مضت عملية التوظيف على عجل لاستنادها إلى الولاء السياسي بالمجمل. انبرى طاقم أوبيرن لتقديم لائحة منجزة من الأسماء، حين طالب المسؤول عن ميزانية بريمر بعشرة من الشبان لأداء مهام إدارية. اشتملت اللائحة على أسماء سيمون

ليديـن، ابنة المعلق مايكل ليدين، المنتمي إلـى المحافظين الجدد، وكايسي واسون، المتخـرج حديثـاً من إحدى الجامعـات الإنجيلية للطلبة الدارسين فـي بيوتهم، وتود بولدوين، المعاون التشريعي للسيناتور الجمهوري ريك سانتوروم. تلقى عشرة الشبان جميعاً، بعد بضعة أيام، رسائل إلكترونية من مكتب أوبيرن. لم يكتشفوا، حتى وصولهم بغداد، ما أثار اهتمام البنتاغون بشأنهم: أرسل جميعهم سيرهم الذاتية إلى مؤسسة التراث المحافظة للأبحاث في واشنطن.

أوكلت مهمة إدارة ميزانية العراق، المقدرة بثلاثة عشر مليار دولار، إلى ستة من أولئـك الشبـان، جراء الافتقار إلى الموظفين في بغـداد، بالرغم من عدم امتلاكهم خبرة سابقة في الإدارة المالية. اكتسب جميعهم سريعاً لقب «الأطفال المدللين».

لـم تبدُ سوق البورصة في بغداد، قبل وقـوع الحرب، كأي من مثيلاتها في العالم، مفتقـرة إلى أجهزة الحاسوب، وشاشات العرض الإلكترونية، والرجال ذوي السترات زاهيـة الألـوان، الذيـن يتراكضـون في أرجائهـا. كانـت التعامـلات «تخربش» على قصاصات ورقية، قبل تدوينها على ألواح سوداء كبيرة. لو أراد المرء البيع أو الشراء، فقـد كان يتعين عليه القدوم إلـى السوق بنفسه، صارخاً بحاجته إلى أحد المتعاملين لقضائهـا. افتقرت السوق، علاوة علـى ذلك، إلى أجهزة تكييـف الهواء، وكانت تعج بالصخب. تمكنت الشركات الخاصة، مع ذلك، من جمع مئات الآلاف من الدولارات، ناهيك عما ألمَّ به العامة من معرفة بالمشروعات الحرة.

لـم يوفـر الناهبون، بعد الحـرب، من محتويـات السوق شيئاً، وقـد كانت عرضة للتجاهـل مـن قبل الدفعة الأولى من خبـراء إعادة الإعمار الاقتصـادي الأمريكيين، المبتعثيـن من وزارة الخزانـة. تمحور اهتمامهم حول ما هو أهـم من المسائل: دفع الرواتب، وإعادة افتتاح المصارف، والحفاظ على استقرار العملة. رغب المضاربون، بكل الأحوال، في العودة إلى أعمالهم، ناهيك عن المستثمرين الراغبين في الحصول على أموالهم.

توصـل توماس بريغز، مسـؤول وزارة الخزانـة الأمريكية البارز فـي العراق، في حزيـران/ يونيـو 2003، إلـى قرار يتمحـور حول ضـرورة تحلـي إستراتيجية سلطة

الائتلاف بالبراغماتية والاعتدال: إعادة افتتاح سوق بورصة بغداد في موقع جديد، والسماح باستئناف عملها كما قبل الحرب. أوكلت تلك المهمة إلى توماس ويرجيس، المنتسب إلى قوات الاحتياط، العامل على قضايا اقتصادية لدى سلطة الائتلاف المؤقتة. لم يجهل ويرجيس ما كان يفعله، بالرغم من تبوُّئه رتبة اختصاصي، التي تعلو رتبة الجندي مباشرة، حيث سبق له العمل لدى الأمريكان إكسبرس سمساراً للبورصة. انتقل ويرجيس إلى سلطة الائتلاف المؤقتة، على ضوء مطالبة وزارة الخزانة بإيجاد موقع جديد لسوق بورصة بغداد.

كتب بريغز، في رسالة إلكترونية إلى مسؤولين آخرين في وزارة الخزانة، قائلاً: «تتطلب إعادة افتتاح سوق بورصة بغداد ثلاثة أمور: مبنى، وبعض الهواتف النقالة، ولوحاً أسود، لا أكثر. أخبرتني إدارة السوق أن ذلك يمثل كل ما تحتاجه. لا حاجة لنا بتعقيد الأمور، بصورة أكبر، عبر الإصرار على أي من الأشياء الأخرى. لا حاجة لوزارة الخزانة، حسب اعتقادي، بإرسال أحدهم إلى بغداد لإنجاز ثلاثة الأمور تلك. أعتقد أن استخدام الخبير ويرجيس يمثل فكرة رائعة. سيؤمن تلك المتطلبات ببراعة بالنظر إلى كفاءته».

اكتشف ويرجيس، بكل الأحوال، حين عمل على التدقيق في نظام عمل البورصة، «أن الفساد يعمها من الرأس حتى أخمص القدمين». افتقرت السوق إلى الإجراءات الوقائية الرئيسة لمنع التلاعب، ناهيك عن الانتقائية فيما يتعلق بترخيص المضاربين، وضعف قواعد تدقيق الحسابات. خرج ويرجيس –من ثمّ– بخطة من مرحلتين: إعادة افتتاح السوق، وإجراء تغييرات بنيوية وتنظيمية، فيما بعد، بغية رفعها إلى مستوى المعايير الدولية من حيث الشفافية والفاعلية. أوضح الرجل الخطوط العريضة لخطته في مذكرة مطولة إلى توماس سي. فولي، المسؤول في سلطة الائتلاف المؤقتة عن عملية الخصخصة في العراق.

لم يختبر أحد السوق كما فعل ويرجيس. أمر فولي وغيره من مسؤولي السلطة البارزين، حين اطلعوا على مذكرة الرجل، بإبقاء السوق مغلقة، بينما تتم مقاربة الأمور التنظيمية. تحدث ويرجيس، بذلك الصدد، قائلاً: «غدت المسألة قضية سياسية خلافية إلى أبعد الحدود».

أخبـر ويرجيـس فولي بحاجته للمساعـدة فيما يتعلق بوضع أنظمـة جديدة. وعد الأخير بجلـب أحد خبـراء الأوراق المالية، ليفكر ويرجيس قائـلاً لنفسه: «سأحظى بشخصيـة رفيعة المستوى مـن بورصة نيويورك، على سبيل المثـال، أو لجنة الأوراق المالية والصرف، شخصية تدري ما تفعل».

لـم يحظَ الرجل، في نهاية المطاف، بغير شـاب قلق، ومتقلب، ويتسم بالعصبية، في الرابعة والعشرين من العمر.

لـم يرق العمل في شركة العقارات كثيراً لجاي هالين. مثّل الشرق الأوسط شغفه، وقـد بلـغ به الاهتمـام، بالرغم من عـدم زيارته قبلاً!، حـد حضور دروس في اللغة العربية، وقراءة تاريخ المنطقة في أوقات فراغه.

انتابـت الرجل مشاعر متفاوتة حيال الحرب التـي شُنَّت للإطاحة بصدام، ولكنه رأى في الاحتلال الأمريكي فرصة ملائمة. أرسل هالين، في صيف العام 2003، رسالة إلكترونيـة إلى روبين جيفري، الذي التقـاه قبل عام مضى، حين تقدم إلى وظيفة في البيت الأبيض. توجه هالين بسؤال بسيط إلى جيفري، قائلاً: «هل توجد فرص للعمل في بغداد؟».

رد جيفـري عليه، في رسالة بعثهـا، قائلاً: «كن حذراً مما تتمنـاه»، قبل أن يرسل سيرته الذاتية إلى مكتب أوبيرن.

تلقـى هالين مكالمة هاتفية مـن البنتاغون، بعد مضي ثلاثة أسابيع، تفيده برغبة سلطـة الائتلاف المؤقتة في قدومه إلى بغداد على الفور، سائلة عما إذا كان بمقدوره الاستعداد أثناء ثلاثة أو أربعة أسابيع.

استذكـر هالين، بذلك الصـدد، قائلاً: «مثلت تلك المكالمـة صدمة بحق. لربما غيرت حياتي بالقدر الأكبر».

طلـب الرجل، بالرغـم من تلهفه للمغـادرة، بضعة أيام لاستشـارة عائلته. انتظر هالين شهراً، بعد موافقته، ليأخذ في التفكير ثانية، عقب انفجار سيارة مفخخة أمام السفـارة الأردنية، وتفجير مقر الأمم المتحدة فـي بغداد، الذي أوقع اثنين وعشرين

قتيـلاً. تحدث هالين، بذلك الصدد، قائـلاً: «كدت أرفض الوظيفة، متردداً إلى أبعد الحدود، وقد سبب ذلك لي كثيراً من المعاناة، عاجزاً عن النوم أسبوعاً أو اثنين».

أخبرتـه عائلته بعدم رغبتها فـي مغادرته. قرر هالين، فـي نهاية المطاف، قبول الوظيفـة. تحدث بذلك الصدد قائلاً: «علمت أنها تمثل إحدى الفرص الثمينة القليلة لتغيير حياتي بصورة إيجابية، مؤمناً بأن الحياة لا تمنح من لا يجازف العطايا».

لـم يكن هاليـن من يجازف وحده، بـل سلطة الائتلاف المؤقتـة كذلك. لم يسبق للرجل متابعة أسواق البورصة الأمريكية، أو دراسة الاقتصاد أو التمويل، وإن أدى دور مقاول في مسرح جامعة يال، حيث درس العلوم السياسية.

عمل هالين، عقب تخرجه، في شركة استشارية خاصة في واشنطن. أرسل الرجل سيرتـه الذاتية إلى البيت الأبيض، بعد عـام ونصف، ليستدعى لمقابلة جيفري، دون الحصول على الوظيفة. احتفظ هاليـن ببريد جيفري الإلكتروني، ليحاول ثانية حين علم أنه كان يعمل لدى بريمر.

أرسـل هالين، قبـل مغادرته، إلى قاعـدة عسكرية في فيرجينيـا، للخضوع «لدورة تدريبيـة». تلقـى الرجـل لقاحيـن ضـد الأمراض، وسترة واقيـة تفتقر إلـى صفائح السيراميـك القـادرة على صد أعيرة البنادق الآلية من طراز «إي كي 47». غادر هالين إلـى الكويت فيمـا بعد، حيث حصل على قنـاع للغاز، واستمع إلـى محاضرة عن أربعة أصناف المتفجرات الأكثر شيوعاً في العراق، ناهيك عن منحه طقماً كاملاً من البزات العسكريـة (طولـب المدنيون الأمريكيـون بارتدائها، حال تعرض المنطقة الخضراء لهجـوم؛ بغية تمييزهم عن «العـدو»). قصد الرجل إحدى حدائـق الملاهي، واحتسى الشراب، قبل الصعود على متن طائرة الشحن «سي – 130»، التي أقلته إلى بغداد.

التقـى هالين، يوم وصولـه، رئيسه الجديد توماس فولي. صـدم الرجل حين علم برغبة فولي في توليه مسؤولية إعادة افتتاح سوق البورصة.

خاطـب هالين فولي قائـلاً: «هل أنت واثق مما تقول؟، لا أملـك خلفية فيما يتعلق بالأمور المالية».

عقب فولي قائلاً: «لا بأس بذلك. يتمثل عملك في إدارة المشروع، ودفع البقية إلى إنجاز أعمالهم، وتنظيم العقود. ستمثل نقطة التواصل الرئيسة، لا أكثر».

دعا ويرجيس هالين، عقب لقائه فولي، إلى إحدى شرفات الطابق الثاني من القصر، ليقدم له سيجاراً كوبياً، بينما كانا يتأملان بركة السباحة، ويحدثه عن نفسه. بلغ ويرجيس التاسعة والثلاثين من العمر، ورزق بطفلين من زواجه. أمضى الرجل ستة أعوام في البحرية، قبل أن يعمل محققاً خاصاً، فمعاوناً لشريف إحدى المناطق، فموظفاً للتأمينات، فرجل مبيعات، فمستشاراً مالياً خاصاً في نهاية المطاف.

أخبر هالين ويرجيس عما أمضاه من وقت في جامعة يال، علاوة على الوظيفتين اللتين شغلهما بعد تخرجه.

فكر ويرجيس، بينما كان هالين يتحدث، قائلاً لنفسه: «لا عمل له هنا».

حسب ويرجيس أنه عقد اتفاقاً مع هالين، ينص على تولي الأخير مسؤولية التواصل مع البارزين من موظفي السلطة، وحضور الاجتماعات، وإطلاع فولي على فحواها، بينما يتولى ويرجيس العمل مع العراقيين، وإقامة سوق البورصة.

تحدث هالين، بعد خمسة أيام من وصوله، في رسالة إلكترونية إلى عائلته وأصدقائه، قائلاً:

«تبدو المنطقة الخضراء برمتها كحرم جامعي: تحوي العدد ذاته من الناس تقريباً، حيث يقوم كل منهم بأعمال مختلفة طيلة اليوم، وإن تم ذلك في المباني ذاتها، مستخدمين المرافق ذاتها. تمثل المنطقة الخضراء عالماً صغيراً، ولا يمكن لغير ما يتسم من البيئات بالخطورة، أو يفتقر إلى الراحة، أو يتصف بالاختلاف، أن يمنح الناس شعوراً بالتقارب فيما بينهم..

اتسم كل من التقيت من العراقيين باللباقة، ناهيك عما أظهروه من تأييد. يعد ذلك متوقعاً، بحكم عملي في سلطة الائتلاف المؤقتة (بما يستثني من يمكن أن يرموني بالقنابل). يمثل العراقيون شعباً عظيماً، إن وضعنا المزاح جانباً. قد يتسم رأيي بالسذاجة، كوني وصلت لتوّي، ولكنني أعلق آمالاً كبيرة على هذا البلد. تنطلق

جهود إعادة الإعمار بقوة، وتنفذ العديد من المبادرات البناءة المفتقرة إلى الدعاية، علـى قدم وساق. يلتزم الأمريكيون بالقضية إلى حـد بعيد، ناهيك عن شركائهم في الائتـلاف. لا يفتقـرون إلى الموهبـة، أو القدرة على الإنجاز، بينمـا يدعمهم كل من التقيت من العراقيين، المتحمسين على حد سواء».

دعـا هـالـين ويرجيس إلى اجتماع، بعد مضـي أسبوعين، قائلاً بحدوث تغيير في الخطط.

استذكر ويرجيس، بذلك الصدد، قائلاً: «أخبرني أن المشروع لم يعد تحت نطاق مسؤوليتي الشخصية، وأنني سأستبعد بالنظر إلى تنحية الجيش عن المهمة، قبل أن يختم اللقاء».

امتلـك هالين خطة جديـدة. لم يُردِ الرجل إعادة افتتاح سـوق البورصة فحسب، فـي أقل من أربعة أشهر، بل جعلها الأفضـل والأكثر حداثة في العالم العربي، ناهيك عـن وضع قانون جديد للأوراق المالية، يمنح السـوق الاستقلالية عن وزارة المالية، بقوانينهـا الداخلية ومجلـس إدارتها، وتشكيل لجنة لـلأوراق المالية والصرف؛ بغية الإشراف عليها، ومنح الرخص لمضاربيها، وإلزام الشركات المتعاملة معها بالكشف عن حساباتها المالية، وتزويدها بنظام حاسوبي للتجارة والتسوية المالية.

obeikandi.com

obeikandl.com

المنطقة الخضراء، المشهد الرابع

لـم تختلف فطائر البيتزا التي يعدها مطعم نابولي عـن مثيلاتها في إيطالية. كان المطعم يدار من قبل وليد خالد، الذي سبق له العمل سنتين في مطعم للبيتزا، قـرب نافـورة تريفي، في روما. عـاد الرجل إلى بغـداد عقب شهر مـن التحرير؛ ليستقـدم البيتزا الحقيقية إلى بلـده. وضع وليد في حسبانه نفـور العراقيين من البيتـزا، ليدرك أنـه سيحظى بكثير من الزبائن من بيـن آلاف الأمريكيين الذين أتوا بغداد.

استأجـر الرجل محلاً في شارع يافا، إلى الشمـال من المنطقة الخضراء، عاقداً العزم على تقديم الأصناف الإيطالية الأصيلة. استحضر وليد عمالاً لتشييد فرن من القرميد، ناهيك عن العثور على ملبنة، قرب سجن أبو غريب، لإعداد جبن الموزاريلا وفق مواصفاته، والاتفاق مع مزارع لتأمين الطماطم النضرة ذاتها التي يمكن إيجادها فـي توسكاني، وزراعة الحبق في حديقته. كلـف الرجل أخاه، علاوة على ذلك، بتلقي طلبات الزبائن.

بـدا وليد كمن يمضي كثيراً من الوقت في طهـي الطعام وتناوله: ما انفك الدقيق يغطيـه، وقد كان قميصه يستوعب بطنه بالكاد. بـدا الرجل، علاوة على ذلك، متعباً علـى الدوام. اعتاد الاستيقاظ في الفجر لإعداد العجيـن والصلصة، قبل أن يمضي بقيـة يومـه أمام الفـرن. امتلك وليـد مكيفـاً للهـواء، دون أن يضمن تدفـق الطاقة الكهربائيـة التـي كانت تنقطع ثلاث ساعـات، في معظم الأيام، قبـل أن تتدفق ثلاثاً أخـر. لم يوفر فتح الشبابيك البرودة للمـكان، عند انقطاع التيار الكهربائي، بالنظر إلى تجاوز درجة الحرارة الأربع والخمسين في الخارج.

التقيت وليداً، في أحد الأيام، بينما كنت أغادر المنطقة الخضراء. أحسست بالجوع، فـي حينه، وقد أغرتني لافتة محله الخشبية، زاهيـة الألوان، بإيقاف العربة لاستطلاع الأمر. لم يكن لديه موائد في المطعم، بل بارٌ ضيقٌ ذو أربعة مقاعد. لم يقدر الرجل ما كان بحاجته من حيز، بحيث شغل الفرن، بعد تشييده، معظم مساحة المطعم.

أخبرنـي وليـد، بينما أعد لـي فطيرة بالفلفـل الأخضر، والفطـر، والبصل، عما أمضاه من وقت في الجيش، ودراسته في جامعة بغداد، وهربه إلى الأردن، وحياته في إيطالية. أدركت، منذ القضمة الأولى، أنني وجدت ضالتي «الغذائية» في بغداد.

جلـس وليد بجانبـي، بينمـا كان يرتشف الكولا، قبـل أن يتساءل بلغـة إنجليزية ركيكـة، قائلاً: «أين هم الأمريكيون؟. افتتحت مطعماً ممتـازاً لإعداد البيتزا، ولكن أحداً لم يأتِ».

عقبت قائلاً: «هم في المنطقة الخضراء. يتعين عليهم اتباع قواعدهم».

عقـب قائلاً: «قواعدهم! مـا الذي تعنيه؟، أنا قريب للغايـة منهم، بحيث يمكنهم المجيء سيراً على الأقدام».

لم يمتلك الرجل فكرة عما كانت عليه الحياة داخل أسوار المنطقة الخضراء. لم يـدرِ أن الأنوار كانت مضاءة علـى الدوام، وأن السائقين يلتزمون حدود السرعة، وأن أنواع المآكل كافة تتوافر في القصر.

oberikandl.com